صفحات من تاريخ الاستشراق

- ٦ -

(ويليام موير) :

كان السير (ويليام موير William Muir) [١٨١٩ — ١٩٠٥] من كبار الموظفين الإنكليز في الهند . وقد نشر اعتباراً من سنة ١٨٥٣ سلسلة من المقالات في (مجلة كلكوتا Calcutta Review) ، جمعها آخر الأمر في كتاب ضخم من أربع مجلدات بعنوان (حياة محمد)(١) .

والكتاب في فصوله المتعلقة بالحوادث التاريخية لايتضمن شيئاً جديداً ، ولذلك كان من الأفضل اختصاره . وأكثر المعلومات في المجلد الأول الذي يبحث في تاريخ العرب قبل الإسلام مقتبس من كتاب (دو برسفال) .

إلا أن هناك بعض الفصول على جانب كبير من الأهمية مثل : الفصل الأول من المقدمة الذي يبحث في مصادر السيرة ودرجاتها المختلفة من الصحة ثم الفصل الثالث من السيرة الذي يتكلم فيه على « إ:ان محمد بإلهامه » ثم الفصل السابع عن علاقة الإسلام بالمسيحية ، والفصل السابع والثلاثين عن « شخصية الرسول وأخلاقه » . .

---

(١) William Muir, Life of Mahomet . London 1858 — 1861.

إن طريقة العرض واضحة ، رزينة ، ولكنها تنم عن تعصب ديني متطرف ، يبعد المؤلف عن الروح العلمية والنظرة الموضوعية في كثير من أحكامه ...

(شبرنجر) :

كذلك نلاحظ سعة الإطلاع وقوة النقد مع التحيز والتهجم في كتاب المستشرق النمساوي (ألويس شبرنجر Alois Sprenger) [١٨١٣ — ١٨٩٣] عن « حياة محمد وتعاليمه »[١] .

كان (شبرنجر) طبيباً ، رحل إلى لندن ودخل في خدمة الإنكليز الذين أرسلوه إلى الهند وعهدوا إليه بادارة مدرسة (دلهي) ومطبعة (كلكوتا) .

ثم انتقل إلى ألمانيا ، وتولى تدريس العربية في برلين ، وانقطع بعد ذلك إلى التأليف .

يبدأ (شبرنجر) دراسته باستعراض النظريات المختلفة التي أبداها قبله المستشرقون في شخصية الرسول (ﷺ) . وهو يقول : « إن الباحثين في ألمانيا قد جردوا كلمة (نبي) من كل معنى ودلالة ، ثم ادعوا أن محمداً كان نبياً . » وقد اعتقد (موير) أن الرسول كان آلة في يد الشيطان بينما رأى فيه (قارلايل) شخصية خارقة للعادة وبطلاً فذاً . أما نتائج دراسات (شبرنجر) فقد أدت به إلى اليقين بأن الإسلام لم ينبثق عن إرادة رجل بل عن حاجات العصر . وإذا كان (قارلايل) قد تطوع ليقول كل شيء حسن عن الرسول فإن (شبرنجر) يريد اتباع الطريق المعاكس . إنه تطوع

(١) Alois Sprenger, Das Leben und die Lehre des Mohammed, Berlin 1861.

للقيام بدور (محامي الشيطان) الذي يستنبط من مدائح أنصار الرسول الجوانب التي يراها مظلمة في شخصية الرسول ؛ كما أنه يلفت الأنظار في كل مناسبة إلى النقاط التي يعتقد أنها دليل على الضعف البشري .

ويجب الاعتراف بأن (شبرنجر) أتقن التمثيل في دور (محامي الشيطان) . وليس المسلمون وحدهم ، بل إن أكثر المستشرقين أيضاً لم يقبلوا حكم (شبرنجر) الذي أراد أن ينسب إلى الرسول (ﷺ) مرض الهستريا . وقد لاحظ المستشرق الهولاندي المشهور (سنوك هور غرونيه) أنه ليس هناك أي دليل أو شاهد يؤيد هذا التشخيص . وعدا ذلك فإن (شبرنجر) لايقدم لنا سوى كلمة مجردة ولا يفسر لنا شيئاً من شخصية الرسول وسر عظمته .

ولكن على الرغم من رفض الفكرة الأساسية في كتاب (شبرنجر) ورغم الإسهاب في مناقشة الموضوعات وكثرة الاستطرادات ، فإن المستشرقين عامة يعتبرونه من أهم الدراسات عن حياة الرسول لأنه اتخذ القرآن مصدراً أساسياً لهذه الدراسة ، واستشهد بما يقارب الثلثين من سور القرآن التي تولى (شبرنجر) ترجمتها بنفسه . يقول (ولهاوزن) « إن كتاب (شبرنجر) كنز ثمين من المعلومات والأفكار .. فإن المؤلف لم ينظر إلى الآداب العربية على أنها مجموعة من الشواهد لتوضيح قواعد النحو بل اهتم بمحتواها ، وما تضمنته من أفكار وتيارات .... » . ولا شك في أن (شبرنجر) قد تقدم خطوات هامة في دراسة المصادر عن حياة الرسول ، واستطاع أن يبرهن على أن الكتب العربية التي ألفت بعد القرن الخامس الهجري لا يمكن الاعتماد عليها لأنها منسوخة بصورة غير انتقادية عن المؤلفين السابقين الذين يجب الرجوع إليهم والأخذ عنهم مباشرة ...

(نولدكة) :

أما المستشرق الألماني (تيودور نولدكه Theodor Nœldeke) [١٨٣٦ — ١٩٣٠] فالآراء متفقة على أنه من أكبر المستشرقين وأوسعهم علماً ، وأكثرهم تحقيقاً ، وأقربهم إلى الإنصاف والعدل والحقيقة . وهو على الرغم من ميله الطبيعي إلى الآداب اليونانية قد دفعته الأقدار إلى الاستشراق ، كما أن جهوده في الدراسات الشرقية قد تمركزت حول المسائل اللغوية ، رغم أن اهتمامه كان متجهاً في الأصل إلى الناحية التاريخية .

وعلى كل حال فإن كتابه « تاريخ القرآن » قد أصبح دعامة لا يستغني عنها كل من يريد دراسة الإسلام وشخصية الرسول . وهو قد استند إلى هذه الدراسة في تأليف كتاب مختصر عن « حياة محمد » موجه إلى جمهور كبير . وتراه يشير في المقدمة إلى أن الدراسات التاريخية — الانتقادية التي بدأها أمثال (وايل) و (موير) و (شبرنجر) لم تبلغ مداها بعد . إلا أنه كانت هناك ، كما يقول ، حاجة إلى نظرة إجمالية تلخص نتائج البحوث العلمية الحديثة . ويصرح (نولدكه) بأنه قد استفاد من دراسات المستشرقين المتأخرين الذين مر ذكرهم ، ولكنه اعتمد أيضاً على بحوثه الذاتية . وهو يخالف (شبرنجر) في أحكامه وينتقد اندفاعه وطريقته الشخصية ؛ وفي الحقيقة يمتاز كتاب (نولدكه) بالنظرة الموضوعية . وقد اعتقد المؤلف أنه ، لأجل إصدار حكم عادل على محمد (ﷺ) ، لا يكفي أن نستعرض حياته كنبي وواعظ وحاكم ، بل ينبغي أن ننظر أيضاً إلى سلوكه مع أتباعه وأصدقائه وفي شؤونه اليومية . فإن صفاته التي نعرفها بالتأكيد تكشف عن سمو الخلق وكرم النفس . أما أخطاؤه فإنها ترجع ، في رأي (نولدكه) ،

إلى عادات عصره وطبائع شعبه . وينتهي (نولدكه) إلى القول « بأن ليس هناك أدنى شك في أن محمداً كان مؤمناً برسالته التي تتلخص في هداية قومه إلى العقيدة الصحيحة ، وإنقاذهم من العقاب الأبدي . . .

نظرية (جريمي) في رسالة محمد ﷺ :

مضت فترة طويلة بعد مؤلفات (وايل) و (موير) و (شبرنجر) و (نولدكه) قبل أن يظهر كتاب جديد عن الرسول ، له قيمة خاصة ، يتصف بالاستقلال في الرأي ويكشف عن نواح غير معروفة ، ونقصد بذلك كتاب « محمد »[1] للمستشرق الألماني (هوبرت جريمي Hubert Grimme) الذي يتضمن المجلد الأول منه حياة الرسول ، والمجلد الثاني للمدخل إلى القرآن .

إن المصادر التي يستند إليها (جريمي) قد سبق نشرها جميعاً ، ولكنه يتبع طريقة جديدة في استخدامها تختلف عن المؤلفين الذين سبقوه . فهو ، قبل كل شيء ، يلتزم الحذر الشديد تجاه روايات رجال الحديث والسيرة ، ويقول : « رغم الاعتراف بأن مجموعات الحديث القديمة تشتمل على كثير من الأخبار الصحيحة إلا أنه من المؤكد أيضاً أن التزوير المقصود قد شاع في هذا الموضوع أكثر من غيره ، ولم يتوصل الباحثون بعد إلى وسيلة مضمونة للتمييز بين الصحيح والمزيف . ثم إن مجموعات الحديث تعبر ، في نظر (جريمي) ، عن الروح التي كانت سائدة في المدينة ، ولكنها لا تعطينا صورة دقيقة عن الحالة في مكة . إنما لدينا ، لحسن الحظ ، مصدر غني تتدفق منه الحقائق التاريخية هو القرآن . وقد سعى (جريمي) إلى الاستفادة من هذا النبع إلى أقصى حد ممكن . والصعوبة الكبيرة هنا إنما ترجع

(١) Hubert Grimme : Mohammed . Muenster 1892 — 1895.

إلى الاختلاف في تحديد الوقت الذي نزلت فيه بعض الآيات . لذلك حاول (جريمي) أن يعالج هذا الموضوع في الجزء الثاني من كتابه .

على أن الطرافة في كتاب (جريمي) هي دعواه بأن محمداً (ﷺ) لم يكن ، في بادئ الأمر ، يبشر بدين جديد ، بل إنما كان يدعو إلى نوع من الاشتراكية . يقول (جريمي) : « إن الإسلام ، في صورته الأولى الأصلية ، لم يكن يحتاج إلى أن نرجعه إلى ديانة سابقة تفسر لنا تعاليمه . ذلك لأننا ، إذا نظرنا إليه عن كثب ، نراه لم يظهر إلى الوجود كعقيدة دينية ، بل إنما كمحاولة للإصلاح الاجتماعي تهدف إلى تغيير الأوضاع الفاسدة ، وعلى الأخص إلى إزالة الفروق الصارخة بين الأغنياء الجشعين والفقراء المضطهدين .... لذلك نراه يفرض ضريبة معينة لمساعدة المحتاجين . وهو إنما يستخدم فكرة الحساب في اليوم الآخر كوسيلة للضغط المعنوي وتأييد دعوته ... »

ويعترف (جريمي) بأن فكرة الإصلاح الاجتماعي — الاشتراكي قد اصطدمت بعقبات لا يمكن اجتيازها ، وتحطمت على صخرة العصبية القبلية والمصالح الطبقية ، وتطورت الدعوة الإسلامية فانقلبت إلى ديانة ذات أهداف ما وراء الطبيعة .

وقد رد المستشرق الهولاندي (سنوك هورجرونيه) على هذه النظرية في بحث طويل نشره في « مجلة تاريخ الأديان » (المجلد ٣٠ لسنة ١٨٩٤) ، وبيّن أن الفكرة الأساسية في الدعوة المحمدية هي فكرة يوم الحساب . أمّا الحض على الإحسان ومساعدة المحتاجين فتلك فضيلة شائعة في الشرق ، ويتفق فيها الإسلام مع اليهودية والمسيحية ، ولا يجوز أن نبني عليها فرضية كالتي وضعها (جريمي) والتي تجعل من الرسول داعية اشتراكيا ...

موقف الاستشراق من سيرة الرسول في العصر الحاضر :

تابع المستشرقون في أوائل القرن العشرين نشر المصادر العربية عن تاريخ العرب والإسلام ، وتوسعوا في دراسة هذه المصادر ونقدها . فقد تم في سنة ١٨٩٨ طبع تاريخ الطبري في (١٣) مجلداً ، وهو يجمع معظم الروايات القديمة عن حياة الرسول . وكان من أهم المصادر القديمة التي نشرت أيضاً كتاب « الطبقات الكبير » لابن سعد . وقد عهد المجمع العلمي في (بروسيا) بتحقيق الكتاب إلى لجنة من كبار المستشرقين تحت إشراف الأستاذ (أدوار ساخاو Eduard Sachau) فصدر في (١٥) مجلداً في (ليدن) بين سنة ١٩٠٤ و ١٩٢٨ . والمجلد الأول يروي سيرة الرسول في مكة ، والمجلد الثاني أخباره في المدينة ، والمجلد الثالث يصف غزواته ، بينما تشتمل المجلدات الأخرى تراجم أحوال الصحابة والتابعين .

وقد نشر المستشرق الطلياني الأمير (ليون قايتاني Leone Caetani) بين سنة ١٩٠٥ وسنة ١٩٢٦ عشر مجلدات من مؤلفه الضخم (حوليات الإسلام Annali dell' Islam) الذي جمع فيه كل الأخبار والروايات عن الحوادث التاريخية منذ الهجرة مرتبة حسب الزمن سنة بعد أخرى ، وقد اشتملت المجلدات العشر على حوادث الفترة من السنة الأولى إلى السنة الأربعين للهجرة . وتولى (قايتاني) مناقشة كل الروايات ونقدها والتعليق عليها ...

ولكن على الرغم من كثرة المصادر وتراكم الوثائق لا يمكن القول بأنه قد ظهرت مؤلفات جديدة للمستشرقين ترسم شخصية الرسول (ﷺ) بصورة واضحة ، وتكشف عن سر عظمته وحقيقة تعاليمه وأهميتها في تاريخ البشرية . وقد ازداد الموضوع تشعباً واتسع نطاقه بعد أن صار المستشرقون لا يكتفون بالبحث في سيرة الرسول كما كانت في الواقع ، بل يحاولون أيضاً

معرفة الصورة التي تكونت عنه لدى المسلمين ، وكيف تطورت هذه الصورة مع تعاقب العصور . ولعل وفرة المواد هي التي أدت إلى تشتت الدراسات ، وتوقف الباحثين عند بعض المسائل الجزئية . أضف إلى ذلك أن بعض الباحثين في هذا العصر لم يستطيعوا التجرد عن التعصب الديني ، فأخذوا يثيرون الشكوك ويشوهون الحقائق .

يتجلى لنا ذلك في كتاب المستشرق الانكليزي (مارجليوث D. S. Margoliouth) عن « محمد وقيام الإسلام »(١) . وقد استفاد المؤلف من عدة مصادر جديدة لم يستخدمها الذين سبقوه ، وأظهر مهارة في الوصف ، ولكنه اندفع مع أهوائه ! ونسب إلى الرسول (ﷺ) الخداع والتضليل . كذلك نلاحظ تأثير التعصب الديني عند الأمير (قايتاني) الذي يبالغ في نقد الروايات الإسلامية ، ويتحامل في حكمه على الرسول في كتابه « دراسات عن التاريخ الشرقي Studi di storia orientale » الذي خصص المجلد الثالث منه لترجمة « حياة محمد الرسول ورجل الدولة » .

وليس غريباً أن يلجأ مبشر يسوعي مثل الأب (هنري لامنس) إلى تحريف النصوص وتشويهها والتلاعب بالعبارات للطعن في العرب والمسلمين ، فهو لم يقصد الكشف عن الحقيقة بل الدس والتضليل والتشنيع في جميع مؤلفاته التي يحوم بعضها حول سيرة الرسول ، مثل مقاله عن (عمر محمد) في المجلة الآسيوية سنة ١٩١١ حيث يرجع تاريخ ولادة الرسول إلى سنة ٥٨٠ خلافاً لجميع الآراء التي تتفق على أن ذلك كان حوالي سنة (٥٧٠) ؛ ومثل كتابه « فاطمة وبنات الرسول »(٢) الذي حاول فيه أن يرسم صورة مشوهة عن فاطمة الزهراء دون أي مستند تاريخي موثوق ؛ ثم كتبه الأخرى عن (مكة) و (الطائف) و (مهد الإسلام) وغيرها .

---

(١) D. S. Margoliouth, Mohammed and the Rise of Islam . London 1905

(٢) Henri Lammens : Fatima et les Filles de Mahomet. Rome 1912

وأكثر المستشرقين ، رغم إعجابهم بكثرة معلومات (لامنس) وسعة اطلاعه وطلاوة أسلوبه لم يستطيعوا إلا انتقاده وفضح مغالطاته ، والتحذير من الاعتماد عليه .

يتمدح جمهور المستشرقين كتاب « حياة محمد »[١] للمستشرق الدانماركي (فرانتس بول Frants Buhl) الذي صدر في (قوبنهاجن) سنة ١٩٠٣ ثم ترجم إلى الألمانية في سنة ١٩٣٠ بعد تنقيحه وتوسيعه بالاتفاق بين المؤلف والمترجم المستشرق المعروف (شيدر H. H. Schaeder) والكتاب يتحاشى الفرضيات البراقة ، ويمتاز بالدقة في دراسة كل التفصيلات ، ويقتصر على الأخبار الموثوقة ، ويعترف بوجود ثغرات في معلوماتنا . وقد رجع المؤلف إلى جميع المصادر المعروفة ، فدرسها دراسة انتقادية ، مستقلة ، وأضاف إليها قصائد الشعراء المعاصرين للرسول التي أهملها الكتّاب الذين سبقوه .

ومع الاعتراف بأن المؤلف قد حاول التزام الحياد والتمسك بالنظرة الموضوعية المجردة ، فإنه لم يتحرر من الأحكام السابقة المعادية بالنسبة إلى شخصية الرسول وصفاته الأخلاقية .

ولعل المؤلف الوحيد بين الباحثين الحديثين الذي بذل جهوداً صادقة لفهم شخصية محمد (ﷺ) وإدراك حقيقة رسالته هو المستشرق السويدي (تور آندريه Tor Andrae) .

نشر (تور آندريه) في سنة ١٩١٨ كتابه عن « شخصية محمد في تعاليم جماعته وعقيدتهم »[٢] الذي استطاع أن يصف لنا فيه شخصية الرسول

(٢) Frants Buhl. Das Leben Muhammeds. Leipzig 1930

(٢) Tor Andrae. Die Person Muhammeds in Lehre und Glauben seiner Gemeinde. Stockholm 1918

كما تصورها المسلمون في مختلف العصور ، وأن يستعرض ما نشأ لديهم من أساطير حوله ، وأن يشرح آراء المتكلمين والمتصوفين في معجزات الرسول وعصمته وتمجيده .

ثم أصدر (تور آندريه) في سنة ١٩٣٠ كتاباً ثانياً عن « محمـــد : حياته وعقيدته » تُرجم إلى الألمانية والانكليزية والطليانية والفرنسية . وهذا الكتاب صغير الحجم لا يتجاوز (١٥٠) صفحة ولكنه يمتاز بالطرافة والاستقلال في الرأي والرزانة في الأسلوب ، والمؤلف لا يريد التوسع في ذكر الحوادث المعروفة ، ومناقشة الروايات المختلفة ، كما اعتاد غيره من المستشرقين ، ولكنه يسعى إلى إيضاح مفهوم الوحي عند الرسول وشرح مضمون الرسالة التي كان يبشر بها ، والبرهان على صدق عقيدته ، ووصف ما كان يتحلى به من مكارم الأخلاق كالإخلاص والتواضع والبساطة والوداعة والتقى .

ومثال (تور آندريه) يثبت لنا أن إخلاص المسيحي لعقيدته الدينية ، لا يمنعه من أن يحاول النفوذ إلى روح ديانة أخرى ، وأن يقوم بالمقارنة بين مختلف العقائد في سبيل إدراك جوهر الفكرة الدينية .

وأخيراً نستطيع القول بأن أكثرية المستشرقين لم يتوصلوا إلى تكوين فكرة صحيحة عن محمد (ﷺ) بسبب تعصبهم الديني . أما القلائل الذين تحرروا من هذه النزعة فيرجع فشلهم في فهم شخصية الرسول إلى مبالغتهم في النظرة التاريخية . فقد انصرفت جهود الباحثين منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى هذه الأيام إلى الكشف عن المنابع والأصول التي اقتبست منها الديانة الإسلامية . ألم يبلغ الأمر ببعض المستشرقين إلى محاولة إرجاع كل شيء في القرآن – سواء أكان فكرة دينية أو حكمة أخلاقية أو نصاً قانونيـــاً ،

أو قصة أدبية ـ إلى نموذج قديم في كتب اليهود أو المسيحيين أو الفرس أو في تقاليد العرب الجاهليين ؟ وقد عارض (تور آندريه) هذه الطريقة في البحث ، وأشار إلى أن جوهر النبوة لا يمكن تحليله إلى مجموعة من آلاف العناصر الجزئية . ومهمة الباحث ، في رأيه ، هي أن يدرك كيف تتألف من العناصر والمؤثرات المختلفة وحدة جديدة ، أصيلة تنبض بالحياة . فالإسلام لا ينكر صلاته بالديانة اليهودية والمسيحية وعقائد الحنيفية ، وتقاليد العرب القدماء ، ولكن ذلك لا يعني أنه مجرد مجموعة من هذه العناصر ...

الدكتور محمد كامل عياد